الحَيَاةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ في مِصْرَ في عَصْرِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ

المؤلف: رمضان محمد رمضان الأحمر
الناشر: شركة القدس للنشر والتوزيع.
تاريخ النشر: الطبعة الأولى ٢٠١٢
عدد الصفحات: ٣٧٨ من الحجم المتوسط

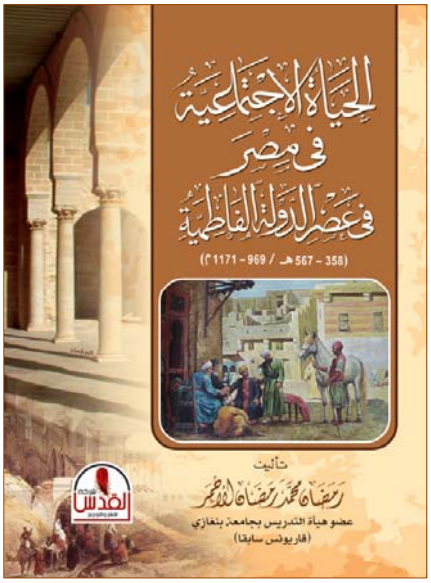

عرض
رمضان محمد رمضان الأحمر
عضو هيئة التدريس – قسم التاريخ
جامعة بنغازي – ليبيا

مقدمة

إنّ الحياة الاجتماعية ما هي إلاّ مجموعة من الأفراد والجماعات يعيشون في منطقة أو بيئة محدودة النطاق والمعالم، مربوطين بزمنٍ ما. ومن الطبيعي أن تنشأ في مناخ هذه البيئة طوائف متعددة من الظواهر والاتّجاهات ومظاهر السلوك، تنشأ من اعتراك الأفراد بعضهم مع بعض، ومن تفاعلهم مع البيئة التي يعيشون فيها، حيث تتقابل عواطفهم وتتلاقى وجهات نظرهم وتختلف رغباتهم، فأعطى ذلك الوضع صورة متكاملة عن حياتهم وأنماط معيشتهم، وأفرز ذلك البناء نُظُماً لتنظيم الحياة فيه. فكانت الحياة السياسية مُوَاكبة له، سواء أكانت من داخل البناء الاجتماعي للمجتمع أم من خارجه، فهي تتربّع على قمّة الهرم الاجتماعي. وبين الحياة الاجتماعية التي يحياها أبناء المجتمع بكل سلبياتها وإيجابيّاتها، وبين النُّظُم السياسية التي تحكم وتُقيّد الحياة بشكلٍ عام عاشت المجتمعات على هامش حياة اقتصادية مُتباينة الاتجاهات. وفي ظل هذه النظم واندماجها تبلورت الكثير من العادات والأعراف والتقاليد ومظاهر السلوك، وأفرز المجتمع الواحد جوانب أُخرى منها ما هو متعلق بالحياة الدينية، ومنها ما هو متعلق بالحياة الفكرية والثقافية وغيرها من الجوانب.

أهمية الكتاب :

تكمن أهمية موضوع كتاب (**الحَيَاةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ في مِصْرَ في عَصْرِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ**)، في أنّ مِصْرَ الإسلامية في عصر هذه الدولة ولأول مرة استقلت استقلالاً حقيقياً، فلم تعد تتبع أيّ جهةٍ أو خلافةٍ أُخرى، وأصبحت عاصمتها القاهرة بُؤرة ومركزًا لدولة مُترامية الأطراف. كما أنّ الدولة الفاطمية هي أول دولة شيعية تحكم مصر الإسلامية - وآخر دولة إلى وقتنا الحاضر-، فكان من الطبيعي أن يحدث تَغيّر كبير في سَيْر الحياة الاجتماعية للسكان فيها، الذي أخذ في التطوّر ليواكب ويساير عقائد ومتطلبات وسياسات وأهداف الدولة الجديدة.

أهداف الكتاب

يهدف هذا الكتاب إلى عِدّة أُمُورٍ منها:

١- التعريف بالعناصر السكانية التي يتكوّن منها المجتمع المصري في العصر الفاطمي، وتحديد العلاقات التي تربط فيما بينهم، وأثر هذه العناصر على الحياة الاجتماعية فيه.

٢- ذِكر للطبقات التي تَألّف منها المجتمع، مع عرض للفئات المُكوّنه لكل طبقة، والوضع الاجتماعي الذي تعيشه وتأثيرها على الحياة العامة في البلاد.

٣- إبراز الدور الذي قامت به المرأة في المجتمع، سواء المرأة الفاطمية أم غيرها.

٤- محاولة توضيح الأحوال المُعاشة للسكان من مَأكل ومَشْرب ومَلْبس ومَسْكن، بالإضافة إلى وسائل لهوهم وتسليتهم، وما تفشّى بينهم من مظاهر سلبية وأمراضٍ اجتماعية.

٥- ذِكر وعرض وشرح لأهم الأعياد والمناسبات والمواسم التي كان يحتفل بها السكان في ذلك الوقت، مع التركيز على ما أضفاه الفاطميون من اهتمامٍ بهذه الأعياد والمواسم، والصِّبغة التي صبغوها بها، حتّى أمست سِمَة من السِّمَات البارزة لذلك العصر.

مضمون الكتاب

يحتوي الكتاب على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة، وفيها حديث عن أهمية الموضوع، وأهم أهدافه، والصعوبات التي واجهت مؤلّفه في إعداده، وأهم المصادر والمراجع التي اعتمدها في إنجازه، بالإضافة إلى المنهاج الذي سار على هَدْيِهِ في

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

كتابته. واحتوى **التمهيد** على عرضٍ موجزٍ عن ماهيّة الدولة الفاطمية، وبدايات انتشار مذهبها في بلاد المغرب الإسلامي، وكيفية توطيد أركانها فيه، ثم محاولاتها لغزو مِصْرَ والسيطرة عليها، حتّى نجحت في ذلك سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م. والانتقال إليها والاستقرار بها نهائيّاً، مما حوّل البلاد المصرية من دار إمارة إلى دار خلافة.

وفي الفصل الأول تحدث المؤلف عن (**عناصر سكان مصر في العصر الفاطمي وأثرهم في الحياة الاجتماعية**)، مُوَضّحاً أُصُول كل عنصر ومواطن سُكْنَاهُ في مدينة القاهرة ، بالإضافة إلى علاقته بالعناصر الأخرى. وهذه العناصر على التوالي هي: المغاربة والأتراك والسودان والأرمن، إلى جانب عناصر أقَلّ عدداً مثل: الصقالبة والروم والديلم والغُزّ والأكراد. أمّا الفصل الثاني المُعَنْوَن بـ (**طبقات المجتمع المصري في العصر الفاطمي**)، ففيه إسهاب عن الطبقات المُكَوّنة للمجتمع المصري في ذلك الوقت. وهي طبقة الخاصة المتمثلة في الخليفة والوزير وأرباب الوظائف. وطبقة العامة التي تشمل أغلب فئات المجتمع، من العلماء والفقهاء والتجار والحرفيين والفلاحين والفقراء والعبيد والمساكين. بالإضافة إلى موضوع أهل الذمة الذين على الرغم من اندراجهم من ضمن الطبقتين السابقتين، إلاّ أنهم يعتبرون كطبقة مُستقلة لها عالمها الخاص المخالف لجمهور الشعب المصري المُسْلِم.

وإكمالاً للفصل الثاني خَصَّصَ المؤلّف الفصل الثالث للحديث عن (**المرأة ودورها في المجتمع المصري في العصر الفاطمي**)، وذلك بصفتها جزءاً لا يتجزّأ من التركيبة السكانية للمجتمع، لها أوضاعها وكذلك أدوارها المهمة فيها. وقد قَسّمَ الفصل إلى مبحثين؛ مبحثٌ مُخصّص للمرأة الفاطمية، وآخرٌ للمرأة المصرية. وفي الفصل الرابع الموسوم بـ (**مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الفاطمي**)، تناول المؤلّف موضوع الأحوال المُعَاشة للفاطميين ولعامة الناس في عصرهم، فتحدث عن الأغذية والأشربة والألبسة والمساكن. كما بَيّن فيه وسائل اللّهو والتَّسلية التي شغفوا بها وأقبلوا عليها، والتي من أهمها: الذهاب إلى المنتزهات، وتنظيم مجالس الغناء والطّرب، والخروج إلى الصيد، والاهتمام بالألعاب الذهنية وكذلك الرياضية، وغيرها من وسائل الترفيه عن النفس. واختتم الفصل بذكر أهم المظاهر السلبية المنتشرة في المجتمع، من ممارسة التنجيم، وشرب الخمور، وتَفَشّي الفاحشة والفُجُور، بالإضافة إلى لعب القمار.

وكان موضوع (**الاحتفالات والمناسبات والأعياد الدينية في مصر خلال العصر الفاطمي**) ، محور الدراسة في الفصل الخامس. وقد صَنّفه المؤلّف إلى خمسة مباحث؛ يختص الأول بالاحتفالات والأعياد الإسلامية العامة: كاحتفال رأس السنة الهجرية وأول العام، والاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وبعيدي الفطر والأضحى، وبشهر رمضان الكريم، وبليالي الوقود الأربعة (ليلة أول رجب وليلة نصفه، وليلة أول شعبان وليلة نصفه). والمبحث الثاني اختصّ بالمناسبات والأعياد الشيعية الخاصة التي استنتها الدولة الفاطمية، وهي: عيد الغدير، والاحتفال بالموالد الأربعة (مولد علي بن أبي طالب، وابنيه الحسن والحسين، وزوجته فاطمة الزهراء ﷺ)، وإحياء يوم عاشوراء. في حين اهتمّ الثالث بأعياد أهل الذمة واحتفالاتهم، ومنها: عيد النيروز، وعيد الميلاد، وعيد الغِطَاس، وخميس العهد، والزيتونة، وعيد الفِصْح، وعيد الشهيد. أما الرابع فكان للاحتفالات والأعياد القوميّة، مثل: الاحتفال بالخروج لسجن يوسف (عليه السلام)، والاحتفال بتخليق (تعطير) عمود المقياس وفتح الخليج، والاحتفال بمولد الخليفة الفاطمي الحاضر، والاحتفال بتولية وليّ العهد، والاحتفال بعيد النصر. وكانت الاحتفالات والمناسبات الأُسرية (الزواج والمولود والْخِتَان والمأتم) مضمون المبحث الخامس.

أما **الخاتمة**، فهي حوصلة لِمَا في الكتاب من نتائج واستنتاجات وتوصيّات تَطلّبتها الدراسة، تمثلت في الآتي:

١- إنّ الدولة الفاطمية أثبتت قدرتها على استيعاب معظم عناصر السكان المختلفة التي تكوّن منها المجتمع المصري، وتسخيرها لخدمة مصالحها وأهدافها، وقد تجلّى ذلك بوضوح في التطور الكبير الذي شهدته البلاد في مختلف مجالات الحياة.

٢- إنّ من أسباب النهضة السريعة التي شهدتها مصر في جميع مجالاتها، هي اهتمام الحكومة الفاطمية بأحوال مُوَظّفيها المعيشية اهتمامًا لم يسبق له مثيلٌ من قبل في مصر ولم يشهد مثله من بعد، الأمر الذي جعلهم في رغدٍ من الحياة، وسهّل عليهم القيام بواجباتهم خير قيام، فلم يَألُوا جهداً في العمل على تقدّم مرافق البلاد ودفع أسباب الفساد عنها في كثيرٍ من الأحيان.

٣- إنْ كانت طبقة الخاصة قد عاشت في رخاءٍ وترفٍ لِمَا كانت تُقَدِّمُهُ لها الدولة من مزايا معيشة عديدة ضمنت لها هذه الحياة، فإن العامة لم يكونوا بعيدين عن هذا المستوى المعيشي، حيث تأثّروا كثيراً بمظاهر البذخ والثراء التي انطبعت بها معظم مظاهر الحياة في ذلك الوقت، فكانوا كثيراً ما يتشبّهون بالخاصة في معيشتهم كلما سمحت لهم الظروف، ولاسيّما أنّ المجال كان مفتوحًا لهم، حيث لم يهتم الفاطميون كثيرًا على تأكيد التفاوت الطبقي، فقد كان هدفهم استقطاب الناس كافة دون مراعاةٍ لطبقاتهم أو فِئَاتهم أو مِلَلِهم أو نِحَلِهم.

٤- إنّ العصر الفاطمي بمصر يعدُّ العصر الذهبي لأهل الذمّة، نالوا فيه حريتهم وتمتّعوا من خلاله بالكثير من التسامح والعطف، الأمر الذي مَكّنهم من أن يَصِلُوا إلى أعلى المناصب في البلاد، وأن يتركوا بصمةً لا بأس بها في المجتمع، تجلّت في بروز أعيادهم الدينية واحتفالاتهم، التي شاركهم الفرحة بها السواد الأعظم من الشعب المصري، بل وجعل الفاطميون من بعضها أعيادًا رسمية تُحْيِيهَا الدولة.

٥- أكّدت المرأة الفاطمية على قوتها في البلاد، وذلك من خلال تدخلها في السياسة الداخلية وتسييرها لِدَفّة الحكم في الكثير من الأوقات، إلى جانب إقامتها للعديد من المشاريع العمرانية المُؤثّرة في حياة الناس في المجتمع المصري.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

٦- إنّ الفاطميين لم يَحطُّوا من شأن المرأة المصرية أو يُقلِّلُوا من كرامتها وقيمتها كجزء أساسي من المجتمع. ولم يكن تشدّدهم معها ومصادرتهم لحريتها في بعض الأحيان، ولاسيما في عصر الخليفة الحاكم، سوى وسيلة للتخفيف من عوامل الغواية والفتنة ومنع انتشار الانحلال والفساد في المجتمع.

٧- إن التطور الكبير الذي شهدته مصر خلال العصر الفاطمي في مجال تعدد أنواع الأطعمة والحلويات وجودتها، كان سببه المباشر حُبّ الفاطميين لحياة البذخ والترف من ناحية، ولكثرة الأعياد والاحتفالات من ناحيةٍ أُخرى، بالإضافة إلى أنّ الفاطميين كانوا من هُوَاة الاكتشاف والتجديد.

٨- إنّ تعدّد وسائل اللهو التسلية والترفيه ما هو إلاّ انعكاس لحياة الترف والبذخ التي كان يعيشها الفاطميون، والتي تأثّر بها عامة الناس في مصر.

٩- أثبتت الدول الفاطمية أنها دولة البهاء والبذخ الواسع، الأمر الذي تَجلّى بوضوح في كثرة الأعياد والمواسم والمناسبات، وطريقة الاحتفال بها والرسوم المتّبعة فيها، والتي كانت أيضاً مظهراً من مظاهر قوتها وعظمتها وسطوتها.

١٠- من غير شك في أن الخلفاء الفاطميين كانوا من أكثر الخلفاء المسلمين حُبّاً للمظاهر والفخامة والأُبّهة.

١١- كان الوازع الأخلاقي والإسلامي لدى الخلفاء الفاطميين الأوائل (المعز لدين الله والعزيز بالله والحاكم بأمر الله) أقوى منه عند الخلفاء الذين تلوهم، وقد ظهر ذلك بوضوح في تشدّدهم ومنعهم للكثير من المُنكرات التي كانت تحدث في المجتمع المصري، بعكس الآخرين الذين تساهلوا وترخّصوا للناس فيها، ومنهم من شارك فيها أيضًا.

١٢- حَقّقَ العصر الفاطمي لمصر تطوّراً ونهضةً اجتماعية لم يسبق لها مثيلٌ من قبل ولا من بعد، غَيّرت مجرى حياة السكان وأضافت إليهم الكثير من العادات والتقاليد التي لم يألفوها، وإن كانوا قد اندمجوا فيها وانصهروا في بوتقتها، فأصبحت جزءاً لا يتجزّأ من حياتهم.

١٣- لم يتسنّ للفاطميين فرض أسلوب حياتهم المُتّسم بالترف والرفاهية واللهو والتسلية إلاّ بفهم طبيعة الشعب المصري المحُب لهذا النوع من الحياة. حيث كانت على خلاف طبيعة الشعب المغربي - التي اختبرها الفاطميون إبّان وجودهم في المغرب - التي اتّسمت بالْجِدّيّة والرصانة والحياة البدوية القاسية. لذلك لم يتعب الفاطميون كثيراً في التأثير على الشعب المصري وصبغه بِصِبغتهم لما وجدوه منهم من ميول واضحة وقبول لهذه الصِّبغة.

١٤- وأخيراً؛ فإنّ الكثير من العادات والتقاليد والشعائر والرُّسُوم المُتداولة بين الناس في وقتنا الحاضر، ولاسيمّا بين المصريين ترجع في أصولها إلى العصر الفاطمي، ولا يزال الناس مُتشبّثين ومُحتفظين بها، ممّا يدلّ على أنّ العصر الفاطمي كان عصرًا فريدًا من نوعه في تاريخ مصر الإسلامية.

وهكذا؛ وعلى الرغم من مُحاولة المؤلف جاهدًا أن يُوَفِّي هذا الموضوع حَقَّهُ من الإيضاح ونثر غبار الزمان عنه، إلاّ أنّ الكمال لله وحده ، فإن هذه الدراسة ينقصها بعض الموضوعات الاجتماعية المهمة، التي للأسف لم تُشَجِّعُ المادة التاريخية على الخوض فيها، منها على سبيل المثال العلاقات الإنسانية التي كانت تربط بين الأفراد والجماعات؛ كالعلاقات بين الأُسرة الواحدة (بين الآباء والأبناء وبين الإخوة)، والعلاقات التي بين الأقارب، وكذلك بين الجيران، وغيرها من الموضوعات الاجتماعية الحيوية التي لن تتضح صورتها إلاّ إذا عُثِرَ على نصوصٍ تاريخية جديدة، قصد مُؤَرِّخوها - المعاصرون لها - التَّأْريخ لها مباشرةً وليست عرضًا في كُتُبهم، وإنّ محاولة استقرائها والكشف عنها من المادة المُتاحة حالياً يعدّ - في نظر المؤلّف- ضربًا من الخيال، أو فنّاً من فنون التأليف الْقَصَصِي الذي لا يتماشى مع الدراسات التاريخية الرّصينة المُوَثّقة.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449